ظاهرة الإرصاد في ديوان أسامة بن منقذ

د.آمال إبراهيم مصطفى
الأستاذ المساعد بكلية التربية جامعة عين شمس

ملخص

تهدف هذه الدراسة إلى الكشف عن ظاهرة الإرصاد في شعر أسامة بن منقذ ، وإلقاء الضوء على أثرها الدلالي والنفسي ، وذلك بوصفها بنية فاعلة داخل النص الشعري ، تهيئ المتلقي للتفاعل مع المعنى وتمكِّنه في نفسه ، وتحقق التماسك النصي بجعل ما تقدم من معنى دالّا على ما سيأتي بعده .

وقد انتشرت هذه الظاهرة في شعر ابن منقذ بشكل لافت ، إلا أن الدراسات التي تناولت ديوانه _ فيما أعلم _ لم تتناولها .

ولأن الإرصاد لا يتحقق في البيت الشعري ، دون المجيء بالمعنى قبل القافية مهيئا وموطئا لها ؛ فقد قامت الدراسة على تحليل الظاهرة ، وتوضيح صورها المختلفة في شعر أسامة بن منقذ ؛ حيث وردت مؤسسة على ظواهر بعينها مثل ؛ وحدة الحقل الدلالي ، والمصاحبات اللغوية ، والثنائيات الضدية ، والاشتقاق، والاقتباس والتضمين .

ولم تغفل الدراسة الوقوف عند تعريف أسامة بن منقذ نفسه لظاهرة الإرصاد في كتابه البديع في نقد الشعر.

رصاد لغة واصطلاحا:

الإرصاد في اللغة المراقبة والإعداد ؛ فقد جاء في أساس البلاغة : رَصَدْتُه وارتصدته وترصَّدته ، قعدت له على طريقه أترقّبه ، وراصدته راقبته [١]. والمَرْصَد والمِرْصاد عند العرب : الطريق . وقول المولى عز وجل: "إن ربك لبالمرصاد" ، معناه لبالطريق ، أي بالطريق الذي ممرُّك عليه ، وقال الزجاج : أي يرصُد من كفر به وصدّ عنه بالعذاب[٢]. والرَّصَد : هم القوم الذين يَرْصُدُون كالحَرَس[٣]. وروى أبو عبيدة عن الأصمعي والكسائي: "رصدتُ فلانا أرصده : إذا راقبته . وأرصدتُ له شيئا أرصده : أعددت له"[٤]. ويأتي الإرصاد في اللغة في المكافأة بالخير ، وجعله بعضهم في الشر أيضا[٥].

أما الإرصاد في الاصطلاح فهو "أن يُجعل قبل العَجُز من الفقرة أو البيت ما يدل على العجز إذا عُرف الرويّ"[٦]. أي "ما يُفهمهما عند معرفة الرويّ"[٧].غير أن التهانوي في كشافه يذكر أن معرفة الروي وحدها لا تكفي للدلالة على العجز ، إذ لابد معها من معرفة القافية ، ففي قول البحتري:

أَحَلَّت دَمي مِن غَيرِ جُرمٍ وَحَرَّمَت بِلا سَبَبٍ يَومَ اللِقاءِ كَلامي

فَلَيسَ الَّذي حَلَّلتِهِ بِمُحَلَّلٍ وَلَيسَ الَّذي حَرَّمتِهِ بِحَرامِ

---

(١) الزمخشري : أساس البلاغة ، تحقيق محمد باسل عيون السود ، دار الكتب العلمية ، بيروت ـ لبنان ، ط/١ ، ١٩٩٨ ، ج/١ ، مادة رصد ، ص٣٥٦.

(٢) ابن منظور : لسان العرب ، دار المعارف ، ج/٣ ، مادة رصد ، ص١٦٥٤.

(٣) الخليل بن أحمد الفراهيدي : كتاب العين ، تحقيق مهدي المخزومي ، إبراهيم السامرائي ، دار ومكتبة الهلال ، ج/٧ ، ص٩٦.

(٤) الأزهري : تهذيب اللغة ، تحقيق أحمد عبد العليم البردوني ، علي محمد البجاوي ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، ١٩٦٧ ، ج/١٢ ، باب الصاد والدال ، ص١٣٦ ، ١٣٧.

(٥) السابق نفسه ، ص١٣٧.

(٦) أحمد مطلوب : معجم المصطلحات البلاغية وتطورها ، مكتبة لبنان ، بيروت_لبنان ، إعادة طبع ، ٢٠٠٧ ، ص٥٧.

(٧) أحمد مصطفى المراغي : علوم البلاغة ، البيان والمعاني والبديع ، دار الكتب العلمية ، لبنان ـ بيروت ، ط/٣ ، ١٩٩٣ ، ص٣٢٤.

قد يتوهم السامع أن العجز (بمحرم) ، لو لم يعرف أن القافية مثل (سلام) و(كلام)[١].

ويُعدّ الإرصاد واحدا من المحسنات المعنوية ، حيث صنف البلاغيون المحسنات إلى قسمين : محسنات معنوية ؛ يكون التحسين بها راجعا إلى المعنى أولا ، وإن كان بعضها قد يفيد تحسين اللفظ أيضا كالطباق . ولفظية ؛ وهي التي يعود التحسين بها إلى اللفظ أصالة كالجناس[٢].

وقد يأتي مفهوم الإرصاد عند بعض البلاغيين القدماء ولكن دون تسمية[٣]؛ فقد أشار إليه ابن المقفع عندما سئل عن البلاغة فقال: "وليكن في صدر كلامك دليل على حاجتك ، كما أنّ خير أبيات الشعر البيت الذي إذا سمعتَ صدره عرفتَ قافيته"[٤]. كما جعله ابن قتيبة– دون أن يسمِّيه– معيارا للحكم على الشاعرية ونأي الشاعر عن التكلف في شعره . يقول ابن قتيبة :"المطبوع من الشعراء من سمح بالشعر واقتدر على القوافي ، وأراك في صدر بيته عجزه ، وفي فاتحته قافيته ، وتبينت على شعره رونق الطبع ووشي الغريزة"[٥]. وعدّه ابن طَباطَبا– دون تسمية– أداة من أدوات الشعر التي تجنِّبه الخلل ، حيث حيث ينبغي أن "تسابق معانيه ألفاظه ، فيلتذ الفهم بحسن معانيه كالتذاذ السمع بمونق لفظه

(١) التهانوي : كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم ، تحقيق رفيق العجم ، علي دحروج ، مكتبة لبنان ، ط/١ ، ١٩٩٦ ، ج/١ ، ص١٤١، ١٤٢.

(٢) أحمد مصطفى المراغي : علوم البلاغة ، ص٣١٩.

(٣) انظر : محمد رضا عبد الله الشخص : الإرصاد في قصائد درر النحو في اميداح الملك المنصور المنصور لصفي الدين الحلي ، مجلة حقول ، النادي الأدبي بالرياض ، السعودية ، ع١١ ، ٢٠١٣ ، ص٢٦.

(٤) الجاحظ : البيان والتبيين ، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون ، دار الجيل ، بيروت ، ط/٢ ، (د.ت) ، ج/١ ، ص١١٦.

(٥) ابن قتيبة : الشعر والشعراء ، حققه وضبط نصه ووضع حواشيه محمد مفيد قميحة ، محمد أمين الضنّاوي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ـ لبنان ، ط/١ ، ٢٠٠٠ ، ص٢٩.

، وتكون قوافيه كالقوالب لمعانيه ، وتكون قواعد للبناء يتركب عليها ويعلو فوقها ، ويكون ما قبلها مسبوقا إليها ولا تكون مسبوقة إليه فتقلق في مواضعها ، ولا توافق ما يتصل بها"[١].

وهناك خلاف بين البلاغيين القدماء حول مصطلح الإرصاد ؛ فقد أطلق عليه قدامة بن جعفر (التوشيح)[٢] ، حيث جاء عنده ضمن ما أطلق عليه ؛ نعت ائتلاف القافية مع ما يدل عليه سائر البيت ، ويعرفه بقوله :"هو أن يكون أول البيت شاهدا بقافيته ، ومعناها متعلقا به ، حتى أن الذي يعرف قافية القصيدة التي البيت منها ، إذا سمع أول البيت عرف آخره ، وبانت له قافيته"[٣].

وأطلق عليه أبو هلال العسكري (توشيحا) أيضا، إلا أنه لم ترضه هذه التسمية، إذ يراها غير لائقة بهذا المعنى ، والأقرب عنده أن يُسمى (تبيانا) ؛ ذلك لأن مبدأ الكلام فيه "ينبئ عن مقطعه ، وأوله يخبر عن آخره ، وصدره يشهد بعجزه، حتى لو سمعت شعرا ، وعرفت رويّه ، ثم سمعت صدر بيت منه ، وقفت على عجزه قبل بلوغ السماع إليه"[٤].

أما ابن رشيق القيرواني فقد أطلق عليه (التسهيم) ، وأشار إلى أن الذي سماه تسهيما هو عليّ بن هارون المنجّم . ويذكر له اسما آخر أطلقه عليه ابن وكيع ؛ حيث سمّاه المُطْمِع[٥]. ويعلل ابن رشيق لتسمية التوشيح والتسهيم بقوله : "وما أظن هذه التسمية إلا من من تسهيم البرود ، وهو أن ترى ترتيب الألوان فتعلم إذا أتى أحدها ما يكون بعده . وأما تسميته توشيحاً فمن تعطُّف أثناء الوشاح بعضها على بعض وجمع طرفيه ، ويمكن أن يكون من وشاح اللؤلؤ والخرز، وله فواصل معروفة الأماكن ، فلعلهم شبهوا هذا به"[٦].

---

(١) ابن طباطبا : عيار الشعر ، تحقيق عبد العزيز ناصر المانع ، دار العلوم للطباعة والنشر ، الرياض ، ١٩٨٥ ، ص٦.

(٢) قدامة بن جعفر : نقد الشعر ، تحقيق كمال مصطفى ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ط/٣ ، ١٩٧٨ ، ص ١٦٧.

(٣) السابق نفسه ، ص١٦٨.

(٤) أبو هلال العسكري : الصناعتين ؛ الكتابة والشعر ، تحقيق علي محمد البجاوي ، محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ط/٢ ، ١٩٧١، ص٢٩٧.

(٥) ابن رشيق القيرواني : العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، دار الجيل ، ط/٥ ، ١٩٨١ ، ج/٢ ، ص٣١.

(٦) ابن رشيق القيرواني : العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ، ص٣٤.

وذكر ابن سنان الخفاجي في (سر الفصاحة) أن بعضهم يسمِّيه (توشيحا)، وبعضهم يسميه (تسهيما) ، ويعرفه بأنه "الكلام الذي يدل بعضه على بعض ، ويأخذ بعضه برقاب بعض ، وإذا أنشدت صدر البيت علمت ما يأتي به عجزه"[١].وهو عنده من النعوت المحمودة ؛ فالشعر الجيد أو أكثره مبني على هذا النحو[٢].

ونلتقي بمصطلح (الإرصاد) عند ابن الأثير في كتابه المثل السائر ، حيث عرّفه بقوله : "وحقيقته أن يبني الشاعر البيت من شعره على قافية قد أرصدها له ، أي أعدها في نفسه ، فإذا أنشد صدر البيت عرف ما يأتيه في قافيته ، وذلك من محمود الصنعة ، فإن خير الكلام ما دل بعضه على بعضه"[٣]. ويعترض ابن الأثير على تسمية أبي هلال العسكري لهذا الفن البديعي توشيحا ، ويرى أن "تسميته بالإرصاد أولى ، وذلك حيث ناسب الاسم مسماه ولاق به ، وأما التوشيح فإنه نوع آخر من علم البيان"[٤].

وقد أكد ابن الأثير على أهمية هذا الفن البديعي وقيمته ، وذكر بيتين لابن نُباتة السعدي ، يفخر فيهما ابن نُباتة بقوافيه التي تشهد له بالبراعة والتفوق ، وإنها لا تُعجز سامعها عن معرفتها ، متى ذُكرت صدور أبياتها . يقول ابن الأثير بعد تعريفه لمصطلح الإرصاد :"في الافتخار بذلك يقول ابن نُباتة السعدي:

خُذها إذا أُنشدَتْ في القومِ من طربٍ
صُدورُها عُرِفَتْ منها قَوافِيها
يَنْسَى لها الرَّاكبُ العَجْلانُ حَاجَتَـهُ
ويُصبِحُ الحاسدُ الغَضْبانُ يُطْرِيها"[٥]

---

(١) ابن سنان الخفاجي : سر الفصاحة ، دار الكتب العلمية ، بيروت- لبنان ، ط/١ ، ١٩٨٢ ، ص١٥٩.
(٢) السابق نفسه ، ص١٥٩ ، ١٦٠.
(٣) ابن الأثير : المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، قدّمه وعلّق عليه أحمد الحوفي ، بدوي طبانة ، دار نهضة مصر ، القاهرة ، (د.ت) ، ج/٣ ، ص٢٠٦.
(٤) السابق نفسه ، ص٢٠٧.

(٥) ابن الأثير : المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، ج/٣ ، ص٢٠٦.

و(الإرصاد) هو أحد المحسنات المعنوية في تصنيف الخطيب القزويني لفنون البديع ، وقد أشار إلى أنّه يسمى التسهيم أيضا ، وعنده "أن يُجعل قبل العجز من الفقرة ، أو البيت ، ما يدل على العَجُز إذا عُرف الرويّ"[١].

وورد مصطلح (الإرصاد) أيضا عند العلوي في كتابه (دار الطراز) ؛ حيث يكون "أول الكلام مرصِدا لفهم آخره ، ويكون مشعرا به ، فمتى قرع سمع السامع أول الكلام ؛ فإنه يفهم آخره لا محالة"[٢]. ويكشف تعليق العلوي على الشواهد الشعرية التي أوردها للإرصاد ، عن التنبّه لنمطين من ألوان الإرصاد وهما ما اعتمد على وحدة الحقول الدلالية ، وكذلك المؤسسس على التضاد ؛ فهو يقول معلقا على قول الشاعر:

وَلَرُبَّما اعتَضد الحَليمُ بِجاهِلٍ لا خَير في يُمنى بِغَيرِ يَسارِ

"فهذا إذا قرع الشاعر صدر البيت ، ووقف على قوله (لا خير في يُمنى) فإنه يتحقق أن لابد من ذكر (اليسار) لا محالة ، لما فيه من الملاءمة له والمناسبة"[٣].

وفي تعليقه على قول أبي تمام:

مَوَدَّةٌ ذَهَبَ أَثمارُها شُبَهٌ وَهِمَّةٌ جَوهَرٌ مَعروفُها عَرَضُ

يقول:"فإنه لما ذكر الذهب جعل في مقابله الشبه ، ولما ذكر الجوهر عُلم أن مقابله العرض ، وهذا إرصاد حسن"[٤].

أما أسامة بن منقذ – موضع الدراسة– فقد أطلق على فن (الإرصاد) ؛ (التسهيم) ، وعرّفه بقوله :"اعلم أن التسهيم هو أن نَعلم القافية ، لما يدل عليه الكلام في أول البيت"[٥].

---

(١) الخطيب القزويني : الإيضاح في علوم البلاغة ، شرح وتعليق وتنقيح محمد عبد المنعم خفاجي ، دار الجيل ، بيروت ، ط/٣ ، (د.ت) ، ج/٦ ، ص٢٤ ، ٢٥.

(٢) العلوي : دار الطراز ، تحقيق عبد الحميد هنداوي ، المكتبة العصرية ، صيدا- بيروت ، ط/١ ، ٢٠٠٢ ، ج/٢ ، ص١٦٨.

(٣) العلوي : دار الطراز ، ج/٢ ، ص١٧١.

(٤) السابق نفسه ، ص١٧٢.

(٥) أسامة بن منقذ : البديع في نقد الشعر ، تحقيق أحمد أحمد بدوي ، حامد عبد المجيد ، مراجعة مراجعة إبراهيم مصطفى ، مطبعة البابي الحلبي وأولاده بمصر ، ١٩٦٠ ، ١٢٧.

وعلى أية حال فإن مصطلح الإرصاد لم يختلف في مقصوده وتعريفه عن مصطلح التسهيم الذي ورد عند ابن منقذ . وإن كان تعريفه للتوشيح يختلف عن معناه عند قدامة ؛ فالتوشيح عنده "هو أن تريد الشيء فتعبر عنه عبارة حسنة ، وإن كانت أطول منه"[١]. ولا علاقة إذن لهذا التعريف بمفهوم التوشيح ، الذي هو مرادف لكل من الإرصاد والتسهيم ، والذي اتضح فيما سبق من تعريف لكل منهما في الاصطلاح ولدى علماء البلاغة الأقدمين.

وقد آثرت الدراسة مصطلح الإرصاد ؛ لأنه كما يقول ابن الأثير : "ناسب الاسم مسماه ولاق به"[٢]. فالشاعر يرصد أول الكلام ويعدُّه لآخره ، والسامع يرصد ذهنه ويعدُّه للتنبؤ بعجز الكلام بما دلّ عليه سابقه[٣]. على أنّ عملية الإرصاد التي يقوم بها الشاعر إنما تتم في اللاشعور ، فالإرصاد "ينهض في الأصل على الارتباط الباطني أو اللاشعوري بين البيت وقافيته ؛ بما يسهم في تشكيل القصيدة تشكيلا مكانيا وزمانيا في آن معا ، وهو ليس عنصرا تحسينيا مسوقا بهدف إحداث أصوات ، وأحداث حسية مستجلبة قسرا لموافقة القافية .. وإنما هو يؤلف بنية أصيلة في نسيج الصياغة الشعرية ، تلتحم التحاما بنيويا بسائر عناصر العمل الشعري ، وتحوي دلالة صوتية ومعنوية"[٤]. فالدلالة في الإرصاد "تعتمد على أمرين : المادة ، والصورة ، فمن حيث المادة _غالبا_ ما يحضر دال يُرهص بدال آخر ، سواء اتفقا في أصل الاشتقاق أم في الحقل الدلالي ، ومن حيث الصورة فإن الإرهاص يتسع ليستوعب السياق الكلي في الشعر ، حيث يطرح النص مجموعة من القوافي تشير إلى طبيعة (الروي) الذي يشكل الدال الثاني ويطرحه على صورة القافية"[٥].

---

(١) السابق نفسه ، ص٨٩.

(٢) ابن الأثير : المثل السائر ، ج/٣ ، ص٢٠٦.

(٣) ابن معصوم : أنوار الربيع في أنواع البديع ، تحقيق شاكر هادي شاكر ، مطبعة النعمان ، النجف الأشرف ، ط/١، ١٩٦٩ ، ج/٤ ، ص٣٣٦.

(٤) أشرف محمود نجا : ظاهرة الإرصاد في شعر الششتري ، دراسة نقدية ، مجلة كلية دار العلوم ، جامعة القاهرة ، مصر ، ع/٦٥ ، أكتوبر ، ٢٠١٢ ، ص٨٠٦.

(٥) محمد عبد المطلب : البلاغة العربية ، قراءة أخرى ، الشركة المصرية العالمية للنشر ، لونجمان ، ط/١ ، ١٩٩٧ ، ص ٣٨٥.

وقد تنبه الباحثون المحدثون إلى أهمية هذه الظاهرة ، وقيمتها الدلالية والنفسية ؛ فالإرصاد "دليل على تمكن الشاعر من قوافيه ، وأنها ليست قوافي قلقة ، أو مجتلبة اجتلابا ، لإقامة الوزن أو الروي فحسب"[١]. ولذلك فهي من علامات الطبع وعدم التكلف[٢]. كما أنها "تشرك المتلقي ، وتنشط ذهنه ، وتثير الفضول فيه من منطلق الافتراض والتوقع ، مما يعمق تفاعله مع النص إلى درجة الإحساس بشراكة النظم مع صاحبه الأصلي"[٣].

وقد تعددت أنماط الإرصاد في شعر أسامة بن منقذ ، وذلك باعتبار ما تتكئ عليه هذه الظاهره في شعره ، فهناك الإرصاد بوحدة الحقل الدلالي ، والإرصاد بالمصاحبات اللفظية ، والإرصاد بالثنائيات الضدية ، والإرصاد بالاقتباس والتضمين ، وأيضا الإرصاد بالاشتقاق . وسوف نعرض لكل نمط على حدة هادفين إلى استبيان قيمته في شعر ابن منقذ ومدى مساهمته في إثراء شعره على المستويين الصوتي والدلالي.

أولا :الإرصاد بوحدة الحقل الدلالي :

الحقل الدلالي semantic field أو الحقل المعجمي lexical field هو "مجموعة من الكلمات ترتبط دلالتها ، وتوضع عادة تحت لفظ عام يجمعها . مثال ذلك كلمات الألوان في اللغة العربية ، فهي تقع تحت المصطلح العام (لون)"[٤].

وقد لعب الحقل الدلالي دورا بارزا ، في الإرهاص بالدال الثاني في بنية الإرصاد لدى المتلقي ؛ وذلك من خلال ما يُعرف بتداعي المعاني associative of meanings ؛

([١]) وليد إبراهيم قصاب : علم البديع ، دار الفكر - دمشق ، دار الفكر المعاصر - بيروت ، ط/١، ٢٠١٢ ، ص٤٣.

([٢]) السابق نفسه ، ص٤٣.

([٣]) حياة معاش : الأشكال الشعرية في ديوان الششتري ، دراسة أسلوبية ، رسالة دكتوراه ، جامعة الحاج لخضر ، الجزائر ، كلية الآداب واللغات ، قسم اللغة العربية ، ٢٠١٠-٢٠١١ ، ص٥٤.

([٤]) أحمد مختار عمر : علم الدلالة ، عالم الكتب ، ط/٥ ، ١٩٩٨ ، ص٧٩. وانظر في الحقل الدلالي : كريم زكي حسام الدين : التحليل الدلالي ؛ إجراءاته ومناهجه ، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع ، القاهرة ، ٢٠٠٠ ، ج/١ ، ص١٢٠.

فكما يقول سوسير "الكلمة توحي دائما بكل شيء يمكن أن يتصل بها ، أو يشترك معها بطريقة أو بأخرى"[١].

وقد ورد هذا اللون من فن الإرصاد بكثرة في شعر أسامة بن منقذ ، ومن أمثلته قوله[٢]:

أَتُراكَ يَعطِفُك العِتابُ وقلّما يَثني العِتَابُ عِنانَ قلبٍ شَارِدِ

هيهاتَ وصلُكَ عند عَنْقَا مُغْرِبٍ ورِضَاكَ أبعدُ من سُهًا وفَراقِدِ

أراد الشاعر أن يؤكد استحالة لقائه بمن يهوى ، فصوّر حلم اللقاء وكأنه ضرب من الوهم والخيال . فالعتاب لا يستميل قلب محبوبه ، وحلم الرضا ليس بمختلف عن حلم اللقاء ؛ لذلك توسل الشاعر ببنية الإرصاد ، التي تأسست على الدالين (سها) و(فراقد) ، وكلاهما ينتمي إلى مجال الأجرام السماوية ، فهما وإن كانا مختلفين على المستوى السطحي ؛ فهما متفقان على مستوى البنية العميقة ، التي أشارت إلى معنى البعد ، بل شدة النأي الذي أراده الشاعر . ولما كانت القافية دالية في القصيدة ؛ كان ذلك مؤشرا لمعرفة المتلقي بالركن الثاني من بنية الإرصاد، وبخاصة أن تداعي المعاني قد لعب دورا بارزا ، حيث استدعى الدال الأول دالا آخر من الحقل الدلالي ذاته ، ومعناه يفيد المعنى الذي ألح الشاعر على إبرازه .

ومن أمثلة هذا الضرب أيضا في شعر أسامة بن منقذ قوله[٣]:

أَحْفَظْتُمُ قَلبي بِغَدْرِكُمُ والقلبُ أدْنَى الغَدْرِ يُحفِظُهُ

وأَضَعتُمُ عَهدَ الهوَى وبِهِ أقْسَمتُ أَن لا زِلتُ أحْفَظُهُ

---

(١) عن : كريم زكي حسام الدين : التحليل الدلالي ؛ إجراءاته ومناهجه ، ج/١ ، ص١٢٧.

(٢) ديوانه ، ص١٣.
(٣) السابق نفسه ، ص٢٦.

وظَنَنْتُمُ وجْدي يُكفِّرُ ما أصبحتُ أسمَعُهُ وألحَظُهُ

تكشف الأبيات عن معاناته في الهوى ، وأنه مغرم بحبيب غادر لا يبقي على عهد ، ولا يصون ودادا ، بل على العكس تستخف محبوبته بمشاعره ، ولا تلقي بالا لوجده وهيامه ، متكئة على ثقته فيما يكنه لها من محبة ومودة ؛ لذلك يثور ابن منقذ موضحا أنه غير غافل عما يدور في نفسها ، ومؤكدا على صدق موقفه ، فهو ليس بالظان وإنما هو من استمع إلى ما أغضبه ، وهو أيضا من لاحظ تلونها واستهتارها . وقد جاءت بنية الإرصاد المكونة من الدالين (أسمعه / ألحظه) لتقرر حجة الشاعر في التغير على محبوبته التي طالما احتفظ لها بعهد لم ترعاه .

وكلا الدالين ينتمي إلى حقل دلالي واحد ، فالسمع والملاحظة إنما يكونان بالحواس ، وربما يتبادر إلى الذهن لفظة (أشهده) ، إذ تنتمي للمجال الدلالي ذاته وتبعا للتداعي فهي ترد بخاطرة المتلقي. ولكن المعرفة المسبقة بالقافية تلعب دورا في اختيار الدال الثاني المتوقع في بنية الإرصاد . على أن وحدة الحقل الدلالي بما تصنعه من حالة تناغم وانسجام بين الدالين ، تمنح ذهن المتلقي قدرة على استدعاء الدال الثاني بمجرد النطق بالدال الأول . ولا يخفى أن مجيء الدالين في صيغة المضارعة ، قد أوحى باستمرار وتتابع ما يسبب غضب الشاعر وسخطه على من أحبها . وقد أتت لفظة (ألاحظه) مناسبة للمعنى ؛ فهي تعني شدة الانتباه والمراقبة.

وتأتي بنية الإرصاد موظفة في أغراض متنوعة في شعر أسامة بن منقذ ، فقد وردت في معرض الغزل وشكوى الحبيب في المثالين السابقين ، وكثيرا ما نجدها في شعر الفخر والمديح ؛ من مثل قوله[1]:

جعلنا الجِهَادَ همّنا واشتغالَنا ولم يُلهِنا عنهُ السَّماعُ ولا الخَمْرُ

دِماءُ العِدَا أَشْهى مِنَ الرَّاحِ عندنا ووقْعُ المَواضِي فيهِمُ النَّايُ والوَتَرُ

(1) ديوانه ، ص٢٠١.

فهو يفخر بأن الجهاد في سبيل الله هو شاغلهم الشاغل ، ولا يصرفهم عنه مجلس خمر أو غناء ، بل إن في النَّهْلِ من دم العدو ما يفوق لذة الراح ، ولهم في صوت الضرب والطعن ما يعلو على أنغام الناي والعود . وجاءت بنية الإرصاد متمثلة في قوله (الناي والوتر) ، فهما من آلات الاستماع والطرب ، وكلاهما يستقطب الآخر ويسحضره في الأذهان ، فالنطق بأولهما يجعلنا نتوقع الآخر الذي يشاركه في مجاله الدلالي . ولعل اجتماع الناي والعود مع لفظة الراح المتقدمة في البيت ؛ جعل مجلس الخمر والغناء والطرب مجسدا أمام أعيننا ، وكشف إلى أي مدى وجد الشاعر وقعها جميعا في طعن العدا وإراقة دمائهم ، ومن ثم فاجتماع الدالين (الناي والوتر) جاء متآزرا مع المعنى ، ومحققا دلالة شعورية أيضا لدى المتلقي.

وقد ورد هذا اللون من بنية الإرصاد في شعره موظفا في نسج صور فنية متنوعة ؛ فمن ذلك قوله[1]:

ولمّا وقفْنا للوَداعِ عَشيّةً وَطَرفي وقَلبي أدمعٌ وخُفُوقُ

بكيتُ فأضحكتُ الوُشاةَ شَماتَةً كأنّي سحابٌ والوُشاةُ بروقُ

تكونت بنية الإرصاد من الدَّالين (سحاب) و(بروق) ، وهما متوافقان دلاليا؛ إذ ينتميان إلى الظواهر الطبيعية والمناخية . وقد شبه الشاعر دمعه ونحيبه في مشهد وداع محبوبته ، بسحاب تنهمر أمطاره ، على حين بدا الوشاة والشامتون بوجوه تبرق سعادة وتهللا . فكلمة (سحاب) قد هيأت الذهن لأن ينساق على الفور إلى دال من المجال الدلالي ذاته ، لاسيما وقد عُرفت القافية فتحتم مجيء كلمة (بروق)، وقد جسدت بنية الإرصاد هنا مدى معاناة الشاعر وألمه لحظة رحيل محبوبته ، حيث اجتمع عليه رزآن الفراق وآلامه ، وشماتة أعدائه وتهلل وجوههم لرؤية معاناته.

وقد يجتمع هذا اللون من بنية الإرصاد في أكثر من موضع في القصيدة الواحدة ، فمن ذلك قصيدته التي يعاتب فيها الدهر ، على كثرة ما صوّبه إليه من سهام وابتلاءات .

---

(1) ديوانه ، ص٩٠.

وفيها يفخر بقومه في معرض التحسر على ما أصابهم في قلعة شيزر ، من جراء الزلزال الذي أودى بهم جميعا[١] . يقول أسامة [٢]:

على حين أفْنى الدّهرُ قَومي ولَمْ تَزَلْ لَهُمْ ذِروةُ العلياءِ والعَدَدُ الدَّثْرُ

إذا حَارَبُوا فالأُسْدُ تَحْمِي عَرينَها وإن سالَمُوا كان التَّبَتُّلُ والذِّكرُ

فطرفَيْ بنية الإرصاد يتبعان مجالا دلاليا واحدا ، ألا وهو العبادة والشعائر الدينية ، فالتبتل هو التفرغ لعبادة المولى عزّ وجلّ ، والذكر هو التسبيح والدعاء ؛ ومن ثم فالدَّالان متآزران على مستوى البنية العميقة ، وينسجان معا المعنى الذي أراده الشاعر ؛ حيث إثبات التقوى والورع والصلاح لقومه ، فشاغلهم الشاغل وقت السلم هو التقرب إلى المولى عز وجل . إذن جاءت بنية الإرصاد معبرة ومجسدة ما أراده الشاعر من جهة ، ومحققة لعنصر تواصل المتلقي مع النص وصاحبه من جهة أخرى ، إذ إن كلمة (التبتل) قد هيأت التوقع لدال آخر ، ينتمي إلى حقلها الدلالي ذاته.

وتأتي بنية الإرصاد في القصيدة ذاتها ، بعد عدة أبيات من السابق ، حيث يرثي الشاعر ولده أبا بكر ، الذي اخطفته المنية وقد قارب والده الثمانين من العمر كما ذكر في شعره . يقول أسامة[٣]:

أبا بَكر ما وجدي عليك بمُنْقَضٍ

طَوالَ اللّيالي ما انقَضى اليومُ والشَّهرُ

إن بنية الإرصاد هنا تحمل دلالة زمانية ، تمثل عبئا ثقيلا على نفس الشاعر ، فلياليه طويلة بما تحمله من قسوة التذكر وفجيعة الفقد ، إنه يتكبّد آلامها يوما تلو الآخر ، وشهرا تلو الآخر ، إلا أن وجده باقٍ لا ينفد أو يهدأ . وقد يتبادر إلى الذهن كلمة أخرى غير (الشهر) ، بمجرد الاستماع إلى الدال الأول (اليوم) ، مثل (الدهر) ويستقيم معها الوزن

(١) في أخبار زلزال شيزر : انظر أسامة بن منقذ : المنازل والديار ، تحقيق مصطفى حجازي، دار سعاد الصباح ، القاهرة ، ط/٢ ، ١٩٩٢ ، مقدمة المؤلف ص٣، ٤ .

(٢) ديوانه ، ص٢٩٧ ، ٢٩٨.

(٣) السابق نفسه ، ص٢٩٨.

والقافية ، ولكن يبدو أن الشاعر غير قادر على مواجهة فكرة غياب ولده ؛ لذلك يمهد لنفسه استيعاب ما حدث على فترات زمنية متتالية ، ومن ثمَّ جاء الدال الثاني (الشهر) كاشفا عن نفسية الشاعر وحرقته .

وبعد عدة أبيات من القصيدة عينها ، تطالعنا بنية الإرصاد في قوله[١]:

من الأرضِ أُنْشِئْنا وفيها مَعادُنا ومِنها يكون النَّشْرُ والبعثُ والحَشرُ

تبدو في البيت السابق العظة والعبرة ، فهما الحكمة المستقاة من التجارب المريرة التي عاشها ابن منقذ . وقد شكّلت بنية الإرصاد محور التذكرة والاعتبار ، إذ إن الهدف من الحياة تجهيز العدة ليوم النشر والبعث والحشر . وأظن أن الدال الأول في بنية الإرصاد في البيت يتكون من كلمتي (النشر والبعث) معا ، إذ إنهما من المجال الدلالي ذاته ، الذي ينتمي إليه الدال الثاني (الحشر) ، فكلها من عالم ما بعد الموت ، وكل لفظة منها تعدّ إرهاصا ومؤشرا لمجيء الأخرى ، وهي أيضا مما يسهل معه التوقع ، فالتوقعات "هي ما ينتظره المرء بناء على تجارب سابقة وخبرات ماضية"[٢] ، وليس هناك كلمات تتبادر في يسر إلى ذهن المتلقي أكثر وأسرع مما يتصل بالعقيدة والدين ، وبذلك يكون توقع الدال الثاني مهيأً ونصب عين المتلقي ، وهذا يزيد من انفعاله بالنص ومعانيه.

ومن أمثلة ما يمثل الدال الأول فيه أكثر من لفظة قوله[٣]:

لا ألتقــى الــدَّهرَ مــن بعـد الــزَّلازل مــا

بقيــتُ إلاّ كســيرَ القَلــبِ حَيْرانــا

أخْنَـتْ علـى مَعشَـري الأدنَـيْنَ فاصـطَلَمَتْ

مــنهم كُهــولاً وشُــبّاناً وولِــدانا

---

(١) ديوانه ، ص٢٩٩.

(٢) أسعد رزوق : موسوعة علم النفس ، مراجعة عبد الله عبد الدايم ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ط/٣ ، ١٩٨٧ ، ص٨٩.

(٣) ديوانه ، ص٣٠٨.

فالكلمات الثلاث (كهولا ، وشبانا ، وولدانا) من حقل دلالي واحد حيث مراحل النمو الإنساني ، ومن ثم فالدال الأول هو قول الشاعر (كهولا وشبانا) ، والثاني هو(ولدانا) ، ونلاحظ توافق الدال الثاني مع السياق من حيث الدلالة ، كما نلاحظ أيضا توافقه صوتيا مع مايسبقه ويلحق به من أبيات . وقد جاءت بنية الإرصاد بكل مكوناتها ، مؤكدة فقد الشاعر لعشيرته جميعا ، كهول وشبان ووالدان، فما ذِكْرُ الكهول والشبان إلا إضاءة الطريق أمام المتلقي لالتقاط مرحلة عمرية تالية ومكملة لما تم إثباته بالفعل . ولعل كلمة (ولدانا) أكثر ملاءمة من (صبيانا) التي تتفق معها وزنا وقافية ؛ ذلك لأن (ولدانا) قد أوحت بانتهاء عشيرته من جذرها ، إذ لم يبقِ الزلزال حتى على وليدهم .

لايخفى أن ألفاظ السيف والرمح والدرع بينها توافق دلالي ، فهى جميعا من أسلحة الحروب والمعارك ، وقد وجدناها تشكل بنية الإرصاد في كثير من شعر أسامة بن منقذ ، وبمترادفات متنوعة ، كل حسب ما تقتضيه الأوزان والقوافي ، ويبدو أن فروسيته التي أشاد بها كل من تناول سيرته[1] ، كانت كامنة وراء حضور هذه المفردات ومترادفاتها في ذهنه ، حيث يتم استدعاؤها تلقائيا تبعا لأوزانه وقوافيه ، وسوف نعرض لعدد من نماذجها في شعره ، محاولين الكشف عن قيمتها في بنية الإرصاد. يقول أسامة مخاطبا الملك الصالح طلائع بن رزِّيك[2]:

واســـلَم لتحيـــا بـــكَ الـــدُّنيا وســـاكِنُها

مـا اغبَـرَّتِ البيـدُ أو مـا اخضـرَّتِ النُّطَـفُ

والـــقَ الأعـــادِي بِجَـــدٍّ لا يخُونُـــكَ إن

خانـــت غـــداةَ اللقـــاءِ البـــيضُ والزُّغَـــفُ

---

(1) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق ، تحقيق عمر بن غرامة الغمروي ، دار الفكر ، بيروت– لبنان ، ١٩٩٥، ج/٨ ، ص٩٠.
(2) ديوانه ، ص١٨٥.

فبنية الإرصاد تتكون من الدَّالين (البيض) وهي السيوف ، و(الزغف) وهي الدروع الحسنة السلالة ، وهما وإن كانا مختلفان على مستوى البنية السطحية ؛ فإنهما متفقان على مستوى البنية العميقة ، فالسيف والدرع متلازمان وذكر أحدهما يستدعي الآخر ، والمعرفة المسبقة بقافية القصيدة تحتم أن يكون الدال الثاني لفظة (الزغف) دون غيرها من أدوات القتال ؛ ذلك لتوافقها صوتيا مع قافية القصيدة. ولا شك في أن المتلقي تعتريه نشوة خاصة حينما يُعمل ذهنه في التوصل إلى اللفظة المناسبة معجميا وصوتيا والتي أرصد لها الشاعر بواسطة الدال الأول في البيت.

وقد تأتي كلمة (البيض) مكونة الدال الأول في بنية الإرصاد ، وتأتي معها كلمة (الأسل) مكونة الدال الثاني كما في قول ابن منقذ[1]:

وما الرَّفاهَةُ من رأيي ولا أرَبِى ولا التَّنعُّمُ من هَمِّي ولا شُغُلي

ولستُ أهْوى بلوغَ المجدِ في رَفَهٍ ولا العُلاَ دُونَ حَطِمْ البيضِ والأَسَلِ

فالشاعر هنا يرصد لقافيته كلمة (الأسل) دون غيرها من ألفاظ الرماح ؛ ذلك لأن هدفه ليس الدلالة فحسب ، وإنما الدلالة والموسيقى ومن ثم كان لزاما عليه اختيار الدال الثاني الذي يتحقق معه الأمران.

وفي معرض رثاء أهله بشيزر ، نراه يرصد للقافية مرادفا آخر لكلمة الرماح وهي (الخُرصان) ، فتأتي مكونة الدال الثاني في بنية الإرصاد ، مع الدال الأول (البيض). يقول أسامة بن منقذ[2]:

أتاهُمُ قَدرٌ لم يُنْجِهم حَذَرٌ مِنْهُ وهل حَذرٌ مُنجٍ لمن حَانا

إن أقْفرت شيزَرٌ منهمْ فهم جَعَلوا منيعَ أسوارِها بيضاً وخُرصانا

لقد أراد ابن منقذ أن يعرض لبعض من مآثر قومه وقوتهم ، فهم وإن كانت خلت منهم قلعة شيزر ؛ فقد حصنوها بالأسوار المنيعة ، وأحاطوها بما يؤمنها من سيوف ورماح.

---

(1) ديوانه ، ص٢٥٥.
(2) السابق نفسه ، ص٣٠٨.

ولما كانت القافية تفرض أن يرصد من أسماء الرماح لفظا خاصا ؛ استدعى الشاعر الفارس من مخزونه اللغوي ما يتوافق صوتيا مع سائر أبيات قصيدته.

ومن ذلك أيضا قوله في الفخر بفروسيته[1]:

ولم أدَّخِر للدَّهرِ إن نابَ أو نَبا ولِلخَطبِ إلاّ صارِمِي وسِنانِي

فقد تكونت بنية الإرصاد عبر الدّالين (صارم) ويقصد به السيف ، و(سنان) وهو نصل الرمح ، وهما يتفقان دلاليا ، فالشاعر أو لنقل الفارس قد ادخر سيفه ورمحه لمواجهة نوائب دهره ونكباته ، ومجيء الدال الأول (الصارم) هيأ لتوقع الدال الثاني ، الذي ينسجم دلاليا مع المعنى المقصود ، وموسيقيا مع بقية أبيات القصيدة .

ويتوالى مجيء السيف والرمح في تشكيل بنية الإرصاد في شعر ابن منقذ، مجسدا من خلالها شجاعته وحسن بلائه . يقول[2]:

سأُنْفِق وَفْرِي في اكتسابِ مكارِمٍ أظَلُّ بها بعد المَماتِ مُخلَّدَا

وأسعَى إلى الهيجاءِ لا أرهبُ الرَّدى ولا أتَخَشّى عامِلاً ومهَنّدَا

جاءت بنية الإرصاد مكونة من الدالين (عاملا) و(مهندا) ، وهما متفقان في المجال الدلالي ، فالعامل هو أعلى الرمح مما يلي السنان بقليل ، أما المهند فهو السيف . والشاعر يفخر بشجاعته وبسالته التي لا يخشى معها رمحا ولا سيف، فالدال الأول (عاملا) يعد إرهاصا لمجيء دال آخر من الحقل الدلالي ذاته ، وكون القافية دالية مطلقة ، ولفظها على وزن (مُفَعَّلا) ، يستوجب اختيار كلمة تتناسب دلاليا وإيقاعيا مع الدال الأول وموسيقى القصيدة ، وبالتالي فقد أتت كلمة (مهندا) مناسبة تماما مكانيا ودلاليا وصرفيا وصوتيا.

---

(1) ديوانه ، ص٢٢٩.
(2) السابق نفسه ، ص٢٣٤.

ثانيا : الإرصاد بالمصاحبة اللغوية:

المصاحبة اللغوية عبارة عن "تجمعات معجمية لكلمتين أو أكثر جرت العادة على تلازمها ، وتكرر حدوثها ، وترابطها دلاليا"[١]. ومصطلح المصاحبة عند الدارسين العرب المحدثين ، ماهو إلا ترجمة لمصطلح (فيرث) collocation الذي اختلفوا في ترجمته "فتعددت مسمياته عندهم وإن كان المضمون واحدا في الغالب ، فأُطلق عليه عدة مصطلحات هي : المصاحبة/التلازم/الاقتران اللفظي/الرصف والنظم/التضام/قيود التوارد"[٢].

وتعود هذه المصاحبة في كل لغة إلى "اتفاق convention أو اصطلاح المتكلمين باللغة ، والذين يمكنهم التنبؤ بهذا الاقتران من خلال الكلمات الاقترانية collective words مثل قطيع ، سرب ، باقة ، نباح ، مواء ، عرين ، عش ، التي تطلب الاقتران بكلمات الغنم ، والطيور ، والورد ، والكلاب ، والقط ، والأسد ، والطائر على التوالي"[٣].

ويعد الإرصاد واحدا من فنون البديع ، التي تعتمد أحيانا على المصاحبات اللغوية[٤] . وقد تعدد هذا اللون في شعر أسامة بن منقذ ، حيث وجدناه يرصد للقافية بكلمة اقترنت بها ولازمتها في الاستعمال اللغوي ، وذكر هذه الكلمة يستدعي على الفور صاحبتها التي ترتبط بها في الكلام العادي دلاليا وتركيبيا[٥].على أنّ التداعي هنا ظاهرة آلية تحدث

---

(١) محمد حلمي هليل : في طور التنفيذ معجم جديد للترجمة من العربية إلى الإنجليزية ، مجلة عالم الفكر ، مج/٢٨ ، ع/٣ ، مارس ، ٢٠٠٠ ، ص٢٤٤.

(٢) حمادة محمد عبد الفتاح الحسيني : المصاحبة اللغوية وأثرها في تحديد الدلالة في القرآن الكريم ، دراسة نظرية تطبيقية ، رسالة دكتوراه ، جامعة الأزهر ، كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين ، ٢٠٠٧ ، ص٦٥.

(٣) كريم زكي حسام الدين : التحليل الدلالي ؛ إجراءاته ومناهجه ، ج/١ ، ص٣٦.

(٤) جميل عبد المجيد : البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٨ ، ص١١٤.

(٥) محمد العبد : إبداع الدلالة في الشعر الجاهلي ؛ مدخل لغوي أسلوبي ، دار المعارف ، القاهرة ، ط/١، ١٩٨٨، ص١٠٣.

تلقائيا وليس للإرادة أي أثر فيها[١] ، فالمصاحبة اللغوية التي تتم بين اللفظتين قد قررها العرف اللغوي . ومن أمثلة هذا الفن في ديوان أسامة بن منقذ قوله في معرض الغزل[٢]:

غَرّاءُ أبهى من ليالِي البدرِ بعيدةُ القُرط هضيمُ الخَصْرِ

فالشاعر هنا يتغزل بمحبوبته ، واصفا وجهها بفرط البهاء والإشراق ، وجيدها بالطول والاستقامة ، وعندما أراد وصفها بدقة الخصر اتكأ على بنية الإرصاد التي تألفت من الدالين هضيم و الخصر ، حيث رصد للقافية بكلمة هضيم التى استدعت قرينتها اللغوية المتآلفة معها دلاليا . ولما كانت القافية معلومة من قبل ؛ تحتم مجيء الدال الثاني كلمة (الخصر) ، لا غيرها من دوال تقع أيضا في مصاحبة لغوية مع لفظة هضيم ، كلفظة (الكشح) مثلا التي تتفق مع الدال الأول ومع المعنى ، ولكنها لا تتآلف مع موسيقى القصيدة وقافيتها. وقد هيأت كلمة (هضيم) المتلقي لتوقع قرينتها اللغوية ، حيث يقفز إليها الذهن بفعل المخزون اللغوي من الشعر العربي ، الذي كثيرا ما نلتقي فيه بهذه المصاحبة اللغوية ، في معرض الغزل ووصف الحسناوات.

ومن أمثلة هذه البنية أيضا في شعره قوله[٣]:

وإذا تَسقَّطَنِي الوُشَاةُ حَديثَكُم أَلْفَوا بِسرِّكُمُ ضنيناً سَاخِطَا

يلقَى اللوائمُ فيك سمعاً صَادِفا عنهم وجَأْشاً للملامَةِ رابِطَا

فقد اعتمدت بنية الإرصاد على المصاحبة اللغوية بين لفظتي (جأشا) و(رابطا)، في سياق حديث الشاعر إلى محبوبته ، وتعهده بصون سر هواها عن الوشاة ، وجاءت بنية الإرصاد في الشطر الثاني من البيت الثاني مؤكدة بمعناها على صمود الشاعر أمام اللائمين . وأتى الدال الأول (جأشا) داعيا على الفور لأن يكون الدال الثاني لفظ (رابطا) ؛

---

(١) جميل صليبا : علم النفس ، دار الكتاب اللبناني ، مكتبة المدرسة ، بيرت – لبنان ، ط/٢ ، ١٩٨٤، ص٤١٧.

(٢) ديوانه ، ص١٨.

(٣) ديوانه ، ص٢٥.

ومن ثَمَّ يصبح الطريق ممهدا أمام المتلقي ، للوقوع على لفظة القافية بمجرد التلفظ بالدال الأول الذي يصاحبها في الاستعمال ، وبخاصة وأن كلمة قافية القصيدة معلومة بالنسبة له ، وأنها جاءت مؤسسة ، وكلها تيسر عملية التوصل للدال الثاني في بنية الإرصاد ، وتحقق تفاعلا بين المتلقي والنص.

وقد تأتي بنية الإرصاد مؤسسة على مصاحبة لغوية مجازية ؛ فمن ذلك قوله[١]:

قُل لأحَباب نَأتْ دَارُهُمُ وعَلى قُربهمُ أَقْرَعُ سِنّا:

سَاءَ ظَنّي باصْطِبَارِي بعدَكُم ولقد كنتُ به أُحسِنُ ظَنّا

فالدال الأول في بنية الإرصاد هو (أقرع) والدال الثاني هو (سنا) ، وهما معا يشكلان مصاحبة لغوية مجازية ؛ حيث الكناية عن تحسر الشاعر على انقضاء عهد قربه من محبوبته . ويتوقع المتلقي كلمة القافية (سنا) فور استماعه لكلمة (أقرع) ؛ وذلك لشيوع هذه المصاحبة اللغوية . ثم يبدأ ثانية في التعرف على مدلولها الكنائي وعلاقته بدلالة السياق الوارد فيه . وهذا من شأنه تحفيز ذهن المتلقي وتحقيق مزيد من التواصل مع النص.

وتتكرر عند أسامة بن منقذ مصاحبات لغوية بعينها مكونة بنية الإرصاد؛ فمن ذلك قوله [٢]:

للهِ أنتَ فما أعْراكَ من مَلَلٍ يُنسِي العهودَ وما أَرعاكَ للذِّمَمِ

وقوله[٣]:

وخَان عَهدي وقَلَّمَا اجتَمعَ الـ حسنُ ورعْيُ العهودِ والذّمَمِ

وقوله كذلك[٤]:

وما كذا تُحفَظُ المواثيقُ في الـ حُبِّ وتُرعَى العهودُ والذِّمَمُ

---

(١) السابق نفسه ، ص١٠١.

(٢) ديوانه ، ص٤٤.
(٣) السابق نفسه ، ص٤٣.
(٤) السابق نفسه ، ص٤١.

لقد تكونت بنية الإرصاد من المصاحبة اللغوية بين الدَّالين (أرعاك/رعى/ترعى) في الأبيات الأول والثاني والثالث على التوالي ، و(الذمم) في الأبيات الثلاثة ، وكلها وردت في سياق الغزل ، حيث كشفت عن خلق الشاعر وشيمته في الهوى ؛ فهو الوفي بعهد الحبيب ، والحافظ لما بينهما من ذمم . ووجود (واو) العطف بعد لفظ (العهود) في البيتين الثاني والثالث ، وكذلك حرف الجر (اللام) بعد الدالِّ الأول (أرعاك) ومسبوقة بكلمة (العهود) في البيت الأول ؛ كلها قد رشحت لتوقع المتلقي مجيء كلمة القافية (الذمم) ، فالمصاحبة اللغوية المتوقعة إنما بين ترعى والعهود أو الذمم أو كلاهما معا ، فلما كانت كلمة العهود قد ذكرت سلفا في الأبيات ؛ تحتم أن يتجه الذهن مباشرة إلى لفظة الذمم . ولعل في ذلك ما يؤكد على أن القافية أو الدالّ الثاني في بنية الإرصاد ليس قلقا أو مجتلبا لإقامة الوزن وهذا يشهد للشاعر ، فالإرصاد "دليل على تمكن الشاعر من قوافيه"[١].

أيضا من أمثلة بنية الإرصاد المتكئة على مصاحبة لغوية معينة ، تكررت في شعر ابن منقذ في أكثر من موضع ، قوله[٢]:

صارَ لي عادةً فلو ضَاقَ رحْبُ الـ أرضِ عنّي ما ضَاق بالصَّبرِ صَدْري

وقوله[٣]:

وكذاكَ لا تَجْزَع لِحَا دِثَةٍ تَضِيقُ بها الصُّدورُ

فالمصاحبة اللغوية بين داليّ بنية الإرصاد (ضاق) ، (صدري) في الشطر الثاني من البيت الأول ، قد تكررت في الشطر الثاني من البيت الثاني ، وإن كانت بصيغة مختلفة حيث جاءت بين الفعل وفاعله في الأول ، وبين المضاف والمضاف إليه في الثاني . ويبدو أن كثرة ما تعرض له أسامة بن منقذ من أحداث، وما ابتلي به من نكبات ، في مقدمتها ما تعرض له من ظلم عمه سلطان الذي حال بينه وبين الحياة في مسقط رأسه شيزر واضطره

(١) وليد إبراهيم قصاب : علم البديع ، ص٤٣.

(٢) ديوانه ، ص٧٧.

(٣) السابق نفسه ، ص٢٨١.

إلى الرحيل منها[١] ، ثم فقد أهله جميعا في زلزال قلعة شَيْزَر[٢] ، ونكبته في ولده أبي بكر ، كلها قد أكسبته صبرا ، وزرعت في نفسه ثباتا وصمودا ، يقاوم بهما ما قد يعتريه من ضيق صدر وجزع . وبنية الإرصاد بركنيها – الدّالّين – وما تقدمها من معنى في صدر البيت وكان إرهاصا لها؛ قد جسدت نفسية الشاعر التي تأبى الاستسلام لنوائب الدهر ونكباته . وتأسيسها على دالّين بينهما مصاحبة لغوية ، يعمق من قدرة المتلقي على استنباط القافية فور استماعه للدالّ الأول ، وبخاصة وأن ما يسبقها من قافية معلوم له.

ويتوالى هذا اللون من بنية الإرصاد بكثرة لافتة في ديوان أسامة بن منقذ، وما ذكرانا هو أمثلة لتلك الظاهرة[٣].

ثالثا : الإرصاد بالتضاد:

الضدية علاقة بين المعاني ، ربما كانت أقرب إلى الأذهان من أية علاقة أخرى ، فبمجرد ذكر المعنى ؛ فإنه يدعو ضده إلى الذهن "فعلاقة الضدية من أوضح الأشياء في تداعي المعاني"[٤]. ولا يخفى أن التداعي المتحقق بين الثنائيات اللفظية المتضادة "يولد الثقة في نفس المتلقي بأنه أحسن التوقع Expectation في كشف ما ينبغي أن ينتهي إليه الكلام مما يقع في دائرة التناسب بعد أن تتوافد على ذهنه وسمعه ، موسيقا خواتيم الكلام المتماثلة من جهة وزنها العروضي ، أو القافية وأركانها"[٥].

ويقوم الإرصاد بالتضاد "على حضور دال في حشو المصراع الثاني من البيت ، يرهص بدال مضاد له يتلوه في عجزه إذا عُرفت القافية والروي"[٦].

---

(١) انظر : أسامة بن منقذ :الاعتبار ، دقق نصوصها وعلق عليها عبد الكريم الأشتر ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، دمشق ، عمّان ، ط/٢ ، ٢٠٠٤ ، المقدمة ، ص١٥.

(٢) أسامة بن منقذ : الاعتبار ، ص١٦.

(٣) انظر في ذلك ديوانه ص٢٣ ، ٢٨ ، ٦٣ ، ١٠٢ ، ١٣١ ، ١٣٧ ، ١٥٥ ، ١٥٨ ، ١٦٠ ، ١٩٣ ، ٢٠٧ ، ٢٦١ ، ٢٦٢ ، ٢٨٢، ٢٨٩ ، ٣١٠.

(٤) إبراهيم أنيس : في اللهجات العربية ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ط/٣ ، ١٩٦٥، ص١٧٩.

(٥) أسعد جواد يوسف : التوشيح ؛ دراسة بلاغية في تقنيات الأسلوب القرآني ، مجلة دراسات إسلامية معاصرة ، جامعة كربلاء ، ٢٠١٧ ، مج/١٦ ، ص٢٤٥.

(٦) أشرف محمود نجا : ظاهرة الإرصاد في شعر الششتري ، دراسة نقدية ، ص٨١٩.

فمن أمثلة هذا اللون في شعر أسامة بن مقذ ، قوله في انقضاء عهد الشباب[١]:

رداءٌ قشيبٌ حالَ حالِكُ لونِهِ وأنْهَجَهُ طيُّ الزّمان ونَشْرُهُ

فالشاعر قد رصد لقافيته لفظ (طي) الذي يفرض مجيء كلمة (نشره) ، لما بينهما من علاقة تضاد ، حيث يستدعيها قانون التضاد لتتوسد موضعها من البيت، في توافق تام مع ما أعده الشاعر من انسجام دلالي مع معنى البيت ، وتناسب صوتي مع رويّ القصيدة. وقد وظّف الشاعر طرفي الإرصاد في الكناية عمّا حلّ به من نوائب سلبته رداء رأسه الأسود القشيب.

ويكثر هذا اللون عبر موضوعات شعره المختلفة ، فمن أمثلته في وصف الحنين والاشتياق قوله[٢]:

هُمُ الهوَى إن تَناءَوْا عنكَ أو قَرُبُوا هُمُ المُنى أقبلُوا بالوُدِّ أو صَدَفُوا

فقد جاءت الثنائية الضدية (أقبلوا / صدفوا) مكونة بنية الإرصاد في البيت السابق ، ومجسدة لمشاعر ابن منقذ تجاه محبوبته ، فهو المحب المدله الذي لا يثنيه عن هوى محبوبته وصلها أو إعراضها. ورصد الشاعر لقافيته لفظة (أقبلوا) التي فرضت مجيء مقابلها اللغوي الذي يقتضيه معنى البيت ، ويتوافق صوتيا مع روي القصيدة ، كما أن وجود أداة العطف (أو) أسهمت في توجيه ذهن المتلقي سريعا إلى اقتناص الدال الثاني في بنية الإرصاد.

ومن هذا الضرب أيضا قوله في مدح الأمير مُعين الدين أُنُر بعد ملاقاته الفرنج وهزيمتهم[٣]:

لا تَنَاسَى مَن كانَ ظِلَّكَ في العُسْـ ـرِ وضيقِ الزّمانِ إذ جَاءَ يُسْرُ

إنّ حسنَ الوفاءِ من مَلكٍ مِثْـ ـلِكَ فضلٌ يَرويهِ بدوٌ وحَضْرُ

(١) ديوانه ، ص١٦.

(٢) ديوانه ، ص٨٦.

(٣) السابق نفسه ، ص١٧١.

فابقَ واسلَم وزِدْ على رغْمِ أعدا ئِكَ جَدًّا ما أعقبَ اللّيلَ فَجرُ

فقد جاءت بنية الإرصاد متعاقبة في الأبيات الثلاث على التوالي ؛ وهو يكشف عن حضور هذه الظاهرة بكثافة في شعر أسامة بن منقذ . وقد جاء صدر كل بيت منها إرهاصا بدلالته ومعناه لبنية الإرصاد ، التي جاءت بدورها متفاعلة مع ما يسبقها دلاليا ، وموافقة لقافية القصيدة صوتيا . وجاء الدال الأول في كل شطر مستدعيا لضده ؛ إذ بمجرد ذكر الكلمات (ضيق/بدو/الليل) فإنه يقفز إلى الذهن الدال الثاني الذي يضادها في المعنى ، فالشاعر بذكره الدال الأول في كل منها ؛ قد رصد لقافيته بالدالّ الثاني (يسر/حضر/فجر) على التوالي . وكلها منسجمة صوتيا مع روي القصيدة . وقد يسرع المتلقي في استحضار لفظة النهار بدلا من الفجر في الشطر الثاني من البيت الثالث ، لكن التوافق الصوتي مع الروي يحتم مجيء لفظة (فجر) . ومن ثم يُهيَّأ المجالُ أمام المتلقي للانتقاء والشعور بغبطة التوصل للفظ الملائم .

ونلاحظ أن تكثيف بنية الإرصاد المؤسسة على التضاد ، في لفظين متتاليين في كل من البيتين الثاني والثالث ؛ قد أظهر اللفظين المتضادين "على هيئة محورين أساسيين يدور المعنى حولهما"[١]. فمن خلال الدالين المتضادين (بدو/حضر) امتدت سيرة الممدوح العطرة لتعمّ في كل الأرجاء ، فلا يخلو منها بدوّ ولا حضر. والدّالان (الليل/فجر) قد امتدا بالمعنى ليشمل الدعاء للممدوح بالغنى والحظ العظيم في كل زمان ، مثلما عمّت سيرته العطرة كل مكان.

ونلاحظ أن تبديل موقع الداليين المتضادين في بنية الإرصاد ؛ إذ لم يأتيا متتاليين في البيت الأول مثلما جاءا في البيتين الثاني والثالث ؛ من شأنه أن يحقق انجذابا سمعيا للمتلقي[٢].

---

(١) أيمن السيد الصياد : بناء القصيدة في شعر حيص بيص ، دراسة في المضامين وآليات النص ، دار الكتب العلمية ، ط/١ ، ٢٠١٤ ، ص١٩٦.

(٢) السابق نفسه ، ص١٩٧.

ويكثر في شعره أن تتعاقب بنية الإرصاد في أبيات متتالية ؛ مما يؤكد أهمية الدور الذي تلعبه هذه الظاهرة في شعره ؛ يقول أسامة بن منقذ [1]:

هـمُ جِيرَتـي والبعـدُ بينـي وبيـنَهمْ وأعجبُ شيءٍ يُعدُ مَن هُوَ لي جارُ

لهـم مِنّـيَ العُتْبـى إذا مـا تَجَرّمُـوا وبَـذْلُ الرّضـا إن أنصـفوني أو جَـارُوا

أَجِيـــرةَ قَلبـــي والّـــذين هَـــواهمُ تَوافـــقَ إعـــلانٌ عليـــه وإســـرارُ

تظنّـونَ أنّ الصّـبرَ يُنجـدُ بَعـدكمْ علـى بُعـدِكُم هَيهـاتَ صَـبْريَ غَـرّارُ

تكونت بنية الإرصاد في البيت الأول من الثنائية الضدية (بعد/جار) ، حيث يستدعي ذكر أحدهما حضور الآخر وفقا لظاهرة التداعي . وقد يقفز إلى الذهن لفظ (قريب) مثلا ؛ إلا أنّ التوافق الصوتي مع روي القصيدة يحتّم انتقاء لفظ (جار). وقد أسهم في سرعة وصول المتلقي للوقوع على الدال الثاني في بنية الإرصاد ؛ مساندة فن رد الأعجاز على الصدور ، فوجود لفظ (جيرتي) في الشطر الأول كان بمثابة توجيه ذهن المتلقي لاختيار لفظ (جار) لتكون الركن الثاني في الثنائية الضدية ، والتي شكلت كذلك الدال الثاني في بنية الإرصاد. ولعل براعة الشاعر تكمن في استغلال عدة ظواهر بديعية وتوظيفها في بنية الإرصاد ، وكلها تسهم في إمتاع المتلقي وجعله أكثر تفاعلا مع كل ما اجتمع للنص من عناصر التشويق ومطابقة التوقع.

وجاءت بنية الإرصاد (أنصفوني/جاروا) في الشطر الثاني من البيت الثاني؛ ثنائية ضدية واقعة في جملة شرطية ، حيث وقع الدالّ الأول (أنصفوني) فعل الشرط ، وتقدم عليه جواب الشرط (بذل الرضا) ، وتلاه مباشرة حرف العطف (أو) الذي يفيد التخيير؛ والذي يمكن أن نطلق عليه نقطة الإرشاد أو نقطة الاستدعاء[2] التي تحتّم استحضار اللفظ المضاد للفعل (أنصفوني) . كل ذلك كان تهيئة ونسجا للمعنى المؤدي إلى القافية ، فجاءت لفظة

---

(1) ديوانه ، ص٦٩.

(2) انظر : أسعد جواد يوسف : التوشيح ، ص٢٤٠.

(جاروا) لتَوافُقِها دلاليا مع معنى البيت ، الذي كشف عن طيب نفس الشاعر ورضاه ، إن اختار محبوبه هجره أو وصله ، وتوافقها صوتيا مع روي القصيدة.

وتأتي بنية الإرصاد في البيت الثالث مكونة من الدالين المتضادين (إعلان/إسرار) ، وهما وإن كانا مختلفين على مستوى البنيتين السطحية والعميقة ؛ إلا أنهما متوافقتان صرفيا ، وهو يحدث تناغما ، يساعد في سرعة استدعاء المتلقي لأحدهما بمجرد استماعه للآخر. وكلها تهيئ سبل صحة توقعه اللفظ الملائم للقافية دلاليا وصوتيا.

وقد يأتي الدّالان في بنية الإرصاد حرفين بينهما علاقة تضاد ، من مثل قوله[1]:

أنت العَيِيُّ على مَا فيكَ من لَسَنٍ

عَن لاَ وأفصحُ خلقِ اللهِ في نَعَمِ

تألفت بنية الإرصاد في البيت من حرفين متضادين ؛ أحدهما يحمل معنى النفي(لا) ، والثاني يدل على الإيجاب (نعم). وقد اتكأ الشاعر في رصده لقافيته على معنى البيت متوسلا بالكناية في إسناد الكرم وسَعة العطاء إلى ممدوحه ، ثم الاستعانة بحرف النفي (لا) الذي يفرض استدعاء ضده وهو (نعم) ، وبخاصة أن في البيت أداة استرشاد أو نقطة استدعاء هي حرف الجر (في). ولعله كان موفقا في مجيء الدال الثاني من بنية الإرصاد (القافية) حرف الجواب (نعم) ، الذي يعد مطلبه ومرجوه من ابن عمّه الأمير ناصر الدين تاج الدوله أبي عبد الله ، حيث توجّه إليه بقصيدته يستعينه في فكاك أخيه نجم الدولة أبي عبد الله محمد بن مرشد من أسر الفرنج[2]. فالمتلقي الذي يقفز إلى ذهنه الدالّ الثاني في الإرصاد هو الأمير ذاته ، وهو من يأمل الشاعر في موافقته ونطقه بالجواب (نعم) ، فكأنه من خلال الإرصاد قد تحتّم عليه النطق بما يريده الشاعر.

---

(1) ديوانه ، ص١٤٩.

(2) انظر : ديوانه ، ص١٤٨.

رابعا: الإرصاد بالاشتقاق:

الاشتقاق هو المجيء "بألفاظ يجمعها أصل واحد في اللغة"[١]. ويطالعنا في ديوان أسامة بن منقذ ضربا من الإرصاد المؤسس على الاشتقاق ، حيث يأتي الدالّان المكونان لبنية الإرصاد متفقين في الأصل الاشتقاقي[٢]. ويكون أحدهما في حشو الشطر الثاني من البيت ، على حين يأتي الدال الثاني في الضرب . وموقع الدالّين على هذا النحو يُخرج الإرصاد من فن بديعي لفظي هو التصدير أو رد العجز على الصدر.

ومن أمثلة الإرصاد بالاشتقاق في شعر أسامة بن منقذ قوله[٣]:

وأُلاَمُ في شَكْوَى جَوَايَ وقَلّمَا يَحظى المُفارِقُ بالرّفِيقِ الرّافِقِ

فقد اتفق الدالّان في المادة اللغوية ، وجاء الدالّ الأول (الرفيق) إرهاصا للدال الثاني (الرافق) . حيث فرضت دلالة السياق وقافية القصيدة أن يكون الدال الثاني هو لفظ (الرافق) ؛ فالبيت يدور في سياق الغزل وشكوى الوجد ، وحاجة المحب المفارق حِبّه إلى رفيق عطوف ليّن الجانب يكون له السلوى ، وقلما يحظى المرء بهذا الرفيق.

ومن أمثلته كذلك في شعره قوله[٤]:

وأخُو الهوَى مثلُ الكتابِ دليلُ ذا ذا كَ عِيانُـــهُ ودليـــلُ ذَا عُنوانُـــهُ

تَحكِـــي البـــروقُ فـــؤادَه فَضِـــرَامُها أشـــواقُهُ وخُفوقُهـــا خَفقَانُـــهُ

يكشف السياق عن وله المحب وشدة حنينه ، فقلبه بروق لا تهدأ ؛ ضوءها نيران أشواقه ، واضطرابها اضطراب قلبه وأشواقه . فقلب المحب إذن يحاكي البرق في أمرين ، الثاني منهما يشكل بنية الإرصاد التي تألفت من الدالين (خفوقها) و(خفقانه) ، وهما متفقان

---

(١) الفخر الرازي : نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز ، تحقيق نصر الله حاجي مفتي أوغلي ، دار صادر ، بيروت ـ لبنان ، ط/١ ، ٢٠٠٤ ، ص٦٢.
(٢) انظر : محمد عبد المطلب : البلاغة العربية ؛ قراءة أخرى ، ص٣٨٥.
(٣) ديوانه ، ص٩١.
(٤) السابق نفسه ، ص١٠٣.

في المادة اللغوية ، وذكر أولهما كان إرهاصا وتأسيسا لفرض مجيء الثاني الذي تناسب دلاليا مع السياق ، وصوتيا مع قافية القصيدة .

خامسا: الإرصاد بالاقتباس والتضمين:

الاقتباس هو "تضمين الكلام شيئا من القرآن الكريم أو الحديث الشريف ، لا على أنه منه"[١]. وقد التقينا في ديوان أسامة بن منقذ بنمط من الإرصاد المؤسس على الاقتباس من القرآن الكريم ، حيث يهيئ بالاقتباس لقيام بنية الإرصاد معتمدا على الحضور الديني للقرآن الكريم في ذهن المتلقي كما سيتضح من الأمثلة التالية . يقول أسامة بن منقذ[٢]:

سَقى ثَرَى أُودِعُوهُ رحمةً مَلأَتْ مَثوى قُبورِهِمُ رَوْحاً ورَيْحانا

البيت من قصيدة في رثاء أهله الذين هلكوا في زلزال شيزر ، حيث يدعو لهم بالرحمة وسكن الجنان . وقامت بنية الإرصاد هنا على الدالين (روح وريحان) ، وهما اقتباس من قوله تعالى في سورة الواقعة: **(فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ الْمُقَرَّبِينَ فَرَوْح وَرَيْحَان)**[٣]. لذلك فإنهما يتمتعان بحضور واضح في ذهن المتلقي ، ومجرد ذكر أحدهما يفرض حضور الآخر . وعلم المتلقي بقافية القصيدة مع ثقافته الدينية يجعلان مجيء الدال الثاني في بنية الإرصاد لفظة (ريحان) أمرا حتميا ، وبخاصة وأن الروح والريحان هما غاية الشاعر من دعائه بالرحمات لأهله ؛ فصدر البيت إذن جاء تهيئة لعجزه ، مما يجعل للإرصاد دورا بارزا في تحقيق التماسك والترابط الدلالي .

ومنه أيضا قوله [٤]:

إن فاجَأَتْكَ اللّيالي بما يسوءُ فَصَبْرَا

فالدهرُ يُرهِقُ عُسرًا ويُتبِعُ العُسرَ يُسرا

---

(١) الخطب القزيني : الإيضاح ، ج/٦ ، ص١٣٧.
(٢) ديوانه ، ص٣٠٩.
(٣) الواقعة ، الآية ٨٩.

(٤) ديوانه ، ص٢٣٦.

فقد قامت بنية الإرصاد على الدالين (العسر) ، (يسرا) ، وهما اقتباس من قوله تعالى في سورة الشرح : **(إنّ مع العُسْرِ يُسْرا)**[١]؛ لذلك رصد الشاعر لقافيته كلمة (العسر) معتمدا على ثقافة المتلقي الدينية التي ستلحق بها حتما كلمة (اليسر) التي تتناسب صوتيا مع روي القصيدة.

أما التضمين فهو أن يضمن الشاعر شعره "شيئا من شعر الغير مع التنبيه عليه إن لم يكن مشهورا عند البلغاء"[٢]. وقد اطّلع أسامة بن منقذ على كثير من الشعر القديم ، وكان يضمنه بعض قصائده ، حتى "اتهمه بعض سامعي شعره بالسرقة من غيره ، وليس فيما فعل سوى التضمين"[٣].

وما يعنينا هو التضمين الذي أسهم في قيام بنية الإرصاد في شعره ، ولم نلتق به سوى في نموذجين من ديوانه ؛ الأول قوله[٤]:

وأنت أعدلُ من يُشكَى إليه ولِي شَكِيّةٌ أنت فيها <u>الخَصم والحكمُ</u>

فالبيت من قصيدة يعاتب فيها أسامة بن منقذ الأمير مُعين الدين أُنُر ، ولا يخفى أن موضوعها يتطابق مع قصيدة المتنبي الميمية التي يعاتب فيها سيف الدولة الحمداني والتي مطلعها[٥]:

واحَرَّ قَلباهُ مِمَّن قَلبُهُ شَبِمُ وَمَن بِجِسمي وَحالي عِندَهُ سَقَمُ

وقد تكونت بنية الإرصاد من الدالين (الخصم والحكم) ، ورصد الشاعر لقافيته الدال الأول (الخصم) ، الذي بذكره يقفز إلى الذهن على الفور الدال الثاني (الحكم) ؛ وذلك استنادا إلى حضورهما في قول المتنبي الشهير[٦]:

---

(١) الشرح : الآية ٦.
(٢) الخطسب القزيني : الإيضاح ، ج/٦ ، ص١٤٠.
(٣) ديوانه ، مقدمة المحقق ، ص١٢.
(٤) السابق نفسه ، ص١٤٦.

(٥) المتنبي : شرح ديوان المتنبي ، وضعه عبد الرحمن البرقوقي ، دار الكتب العلمية ، بيروت - لبنان ، ط/١ ، ٢٠٠١ ، ج/٤ ، ص٦١.
(٦) السابق نفسه ، ص٦٢.

يا أَعدَلَ الناسِ إلّا في مُعامَلَتي فيكَ الخِصامُ وَأَنتَ الخَصمُ وَالحَكَمُ

بالإضافة إلى المناسبة الدلالية المتطابقة في البيتين والتي تستحضر بيت المتنبي في ذهن الشاعر ، وأيضا المناسبة الصوتية مع سائر الرويّ في القصيدة.

أما النموذج الآخر فقوله[١]:

أسكَّانَ أكنافِ العواصِم دعوةً بِفِيَّ بَرودًا وهي في كَبِدِي جَمْرُ

حيث تأسست فيه بنية الإرصاد على التضمين من بيت المتنبي القائل[٢]:

أَريقُكِ أَم ماءُ الغَمامَةِ أَم خَمرُ بِفِيَّ بَرودٌ وَهوَ في كَبِدي جَمرُ

وقد هيأ الشاعر بنية الإرصاد بالاتكاء على تضمين ألفاظ من الشطر الثاني من بيت المتنبي ، ورَصَد لقافيته لفظ (كبدي) الذي استلزم استحضار كلمة (جمر) ، مستندا على حضور بيت المتنبي في ذهن المتلقي ، وتوافقها مع الروي في القصيدة. ولعل تطابق أثر الهوى على الشاعرين وما ألم بهما من نار وحرقة – وإن اختلف الباعث على الألم ، فهو عند المتنبي النهل من ريق المحبوب ، وعند ابن منقذ الدعاء لأحبابه الذين ترحلوا عنه وهجروه – من شأنه أن يسهم في زيادة نسبة صحة التوقع عند المتلقي ، حيث يعجّل بسرعة حضور بيت المتنبي ذاته إلى الأذهان.

ونلتقي في شعر أسامة بن منقذ بلون من الإرصاد يؤسسه على تضمين أسماء الشعراء ؛ ويعتمد هذا الضرب في اكتشافه على ثقافة المتلقي ، وإلمامه بسيرة الشعراء وأشعارهم ، ومن أمثلته قوله[٣]:

بِالهَوى هَامَ في الفَلاَ قيسُ ليلَى وبه ماتَ عُروةٌ وجَميلُ

وقوله[٤]:

---

(١) ديوانه ، ص٧٢.
(٢) المتنبي : شرح ديوان المتنبي ، ج/٢ ، ص١٦٠.

(٣) ديوانه ، ص١٤٠.
(٤) السابق نفسه ، ص٩٩.

وهـاجَ لـيَ الشـوقَ القـديمَ حَمامـةٌ علـى غُصُـنٍ فـي غَيْضَـةٍ تتـرنّمُ

فقلـتُ لهـا إن كنـت خنسـاءَ لوعـةً ووجـدًا فـإنّي فـي البكـاءِ مـتمّمُ

وقوله[1]:

فيا صخرُ ما الخنساءُ مثلي ولا نَهَى بَوادِرَ دَمعِي ما قَضاهُ لَبِيدُ

جاء صدر البيت الأول متآزرا مع المعنى اللاحق ، ثم رصد الشاعر لقافيته بذكر اسم (عروة) ، وهو الشاعر عُرْوَة بن حِزام[2] المعروف بأنه من متيمي العرب الذين قتلهم الهوى ، وقد اشتهر بحب ابنة عمه عفراء ، واستدعى ذلك أن تكون القافية اسم (جميل) بعد التوطئة لها من خلال معنى البيت ، فجميل هو جميل بن معمر الذي اشتهر بحبه لبثينة ؛ ومن ثم فذكر عروة في الهوى يحتّم الإتيان بجميل لمناسبته للمعنى دلاليا وللروي صوتيا . ومعلوم أنّ توقع القافية هنا يتوقف على ثقافة المتلقي ومعرفته بسِيَرِ الشعراء.

وجاء المعنى في صدر البيت الثاني مهيئا للقافية ، وجاءت بنية الإرصاد مكونة من الدالّين (البكاء) ، و(مُتَمِّم) ، وقد ارتبطت سيرة الشاعر مُتَمِّم بن نُوَيْرَة بالحزن الشديد على أخيه مالك[3] ؛ ومن ثم فإن العلم بروي القصيدة وسيرة مالك ابن نويرة ، مع ذكر الخنساء في صدر البيت كلها تشي بأن تتم القافية بذكر (متمم).

---

(1) السابق نفسه ، ص١١٨.

(2) انظر في أخبار عروة بن حزام : أبو الفرج الأصفهاني : كتاب الأغاني ، تحقيق إحسان عباس ، إبراهيم العسافين ، بكر عباس ، دار صادر ، بيروت ، ط/١ ، ٢٠٠٢ ، ج/٢٤ ، ص٨٠ وما بعدها.

(3) انظر في خبر متمم بن نويرة : محمد بن سلام الجمحي : طبقات فحول الشعراء ، قرأه وشرحه أبو فهر محمود محمد شاكر ، دار المدني بجدة ، ط/١ ، السفر الأول ، ص٢٠٣-٢٠٩ (طبقة أصحاب المراثي).

أما البيت الأخير فتقوم فيه بنية الإرصاد على الدالّين (قضاهُ ، ولبيد) ، أما لبيد فهو شاعر جاهلي معروف من أصحاب المعلقات ، من شعره قوله[1]:

إلى الحَولِ ثُمَّ اسمُ السَلامِ عَلَيكُما وَمَن يَبكِ حَولاً كامِلاً فَقَدِ اعتَذَر

فالتهيئة للقافية بدلالة صدر البيت ، والعلم بسيرة لبيد بن ربيعة حيث مخاطبته ابنتيه بأنه ميت لا محالة ، وعليهما الحداد عاما كاملا بعد وفاته . وأيضا معرفة روي القصيدة وصيغة القافية التي أتت على وزن (فعولن) ؛ كلها تحتِّم مجيء اسم (لبيد) قافية للبيت .

وماينبغي الإشارة إليه هو أن هذا الضرب من بنية الإرصاد ينقل المتلقي إلى حالة من النشوة والمتعة ؛ إذ يعتمد على ثقافته وإلمامه بالتراث ، كما أنه يحتاج إلى ذهن متقد قادر على التوقع والاستنباط وكلها حالات شعورية تصبغ صاحبها بصبغة الرضا والغِبْطّة.

نتائج البحث:

وإذا أرنا أن نجمع شمل ما تفرق في هذ البحث قلنا:

أولا: اختلف البلاغيون القدماء حول مصطلح الإرصاد ، فمنهم من يطلق عليه توشيحا، ومنهم من يسميه تسهيما . لكن الأكثر شيوعا هو مصطلح الإرصاد.

ثانيا: صنف القدماء الإرصاد ضمن الفنون البديعية المعنوية ، وجعلوه شاهدا على براعة الشاعر وتفوقه ، فخير الشعر عندهم ما تكون قوافيه كالقوالب لمعانيه.

ثالثا: لم يغفل الباحثون المحدثون أهمية هذه الظاهرة وقيمتها الدلالية في تحقيق التماسك النصي ؛ حيث دلالة المعاني على بعضها وأخذها برقاب بعض .

رابعا: تنبه الباحثون المحدثون إلى الأثر النفسي لهذه الظاهرة على كل من الشاعر والمتلقي ؛ فهي دليل تمكّن الشاعر وعدم تكلفه ، ومن ثَمَّ فهي مجلبة للثناء والتميز والارتقاء . أما المتلقي فإنها تتيح له تنشيط الذهن وإثارة الفضول وبلوغ حالة من السعادة بصحة توقعه ، وكلها تثمر أيضا في تفاعله مع النص وكأنه شارك في نظمه واختياراته.

([1]) لبيد بن ربيعة : شرح ديوان لبيد بن ربيعة ، تحقيق إحسان عباس ، وزارة الإرشاد والإعلام ، الكويت ، ١٩٦٢ ، ص٢١٤.

خامسا: كشفت الدراسة عن شيوع هذه الظاهرة بكثرة في ديوان أسامة بن منقذ، ولم تقتصر على فن شعري دون آخر ؛ بل تضمنتها كل موضوعاته الشعرية.

سادسا: تعددت أنماط هذه الظاهرة في ديوان أسامة بن منقذ تبعا لما رصده لها من ظواهر لغوية وبلاغية ؛ فمنها ما جاء مؤسسا على وحدة الحقل الدلالي ، ومنها ما تأسس على المصاحبة اللغوية ، ومنها الإرصاد بالتضاد ، والإرصاد بالاشتقاق ، ومنها الإرصاد بالاقتباس والتضمين.

سابعا: كان لظاهرة التداعي حضور بارز في مصاحبة هذا الفن البديعي ، والوصول بالمتلقي إلى صحة التوقع ، لا سيما في الإرصاد المؤسس على المصاحبات اللغوية والتضاد.

المصادر والمراجع:

١_ إبراهيم أنيس : في اللهجات العربية ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ط/٣ ، ١٩٦٥.

٢_ ابن الأثير : المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، قدمه وعلق عليه أحمد الحوفي ، بدوي طبانة ، دار نهضة مصر ، القاهرة ، (د.ت) ، ج/٣.

٣_ ابن سنان الخفاجي : سر الفصاحة ، دار الكتب العلمية ، بيروت– لبنان ، ط/١ ، ١٩٨٢ .

٤_ ابن رشيق القيرواني : العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، دار الجيل ، ط/٥ ، ١٩٨١ ، ج/٢ .

٥_ ابن طباطبا : عيار الشعر ، تحقيق عبد العزيز ناصر المانع ، دار العلوم للطباعة والنشر ، الرياض ، ١٩٨٥ .

٦_ ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق ، تحقيق عمر بن غرامة الغمروي ، دار الفكر، بيروت– لبنان ، ١٩٩٥ ، ج/٨ .

٧_ ابن قتيبة : الشعر والشعراء ، حققه وضبط نصه ووضع حواشيه محمد مفيد قميحة، محمد أمين الضنّاوي ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ، ط/١ ، ٢٠٠٠.

٨_ ابن معصوم : أنوار الربيع في أنواع البديع ، تحقيق شاكر هادي شاكر ، مطبعة النعمان ، النجف الأشرف ، ط/١، ١٩٦٩ ، ج/٤ .
٩_ ابن منظور : لسان العرب ، دار المعارف ، (د.ت) ، ج/٣ .
١٠_ أبو الفرج الأصفهاني : كتاب الأغاني ، تحقيق إحسان عباس ، إبراهيم العسافين ، بكر عباس ، دار صادر ، بيروت ، ط/١ ، ٢٠٠٢ ، ج/٢٤ .
١١_ أبو هلال العسكري : الصناعتين ؛ الكتابة والشعر ، تحقيق علي محمد البجاوي، محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ط/٢ ، ١٩٧١.
١٢_ أحمد مختار عمر : علم الدلالة ، عالم الكتب ، ط/٥ ، ١٩٩٨.
١٣_ أحمد مصطفى المراغي : علوم البلاغة ، البيان والمعاني والبديع ، دار الكتب العلمية ، لبنان – بيروت ، ط/٣ ، ١٩٩٣ .
١٤_ أحمد مطلوب : معجم المصطلحات البلاغية وتطورها ، مكتبة لبنان ، بيروت– لبنان ، إعادة طبع ، ٢٠٠٧ .
١٥_ الأزهري : تهذيب اللغة ، تحقيق أحمد عبد العليم البردوني ، علي محمد البجاوي، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، ١٩٦٧ ، ج/١٢ .
١٦_ أسامة بن منقذ : البديع في نقد الشعر ، تحقيق أحمد أحمد بدوي ، حامد عبد المجيد ، مراجعة إبراهيم مصطفى ، مطبعة البابي الحلبي وأولاده بمصر ، ١٩٦٠ .
١٧_ أسامة بن منقذ : المنازل والديار ، تحقيق مصطفى حجازي، دار سعاد الصباح ، القاهرة ، ط/٢ ، ١٩٩٢ .
١٨_ أسامة بن منقذ : الاعتبار ، دقق نصوصها وعلق عليها عبد الكريم الأشتر ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، دمشق ، عمّان ، ط/٢ ، ٢٠٠٤ .
١٩_ أسعد جواد يوسف : التوشيح ؛ دراسة بلاغية في تقنيات الأسلوب القرآني ، مجلة دراسات إسلامية معاصرة ، جامعة كربلاء ، ٢٠١٧ ، مج/١٦ .
٢٠_ أسعد رزوق : موسوعة علم النفس ، مراجعة عبد الله عبد الدايم ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ط/٣ ، ١٩٨٧ .

٢١_ أشرف محمود نجا : ظاهرة الإرصاد في شعر الششتري ، دراسة نقدية ، مجلة كلية دار العلوم ، جامعة القاهرة ، مصر ، ع٦٥ ، أكتوبر ، ٢٠١٢ .

٢٢_ أيمن السيد الصياد : بناء القصيدة في شعر حيص بيص ، دراسة في المضامين وآليات النص ، دار الكتب العلمية ، ط/١ ، ٢٠١٤ .

٢٣_ التهانوي : كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم ، تحقيق رفيق العجم ، علي دحروج ، مكتبة لبنان ، ط/١ ، ١٩٩٦ ، ج/١.

٢٤_ الجاحظ : البيان والتبيين ، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون ، دار الجيل ، بيروت ، ط/٢ ، (د.ت) ، ج/١ .

٢٥_ جميل صليبا : علم النفس ، دار الكتاب اللبناني ، مكتبة المدرسة ، بيرت – لبنان ، ط/ ، ١٩٨٤.

٢٦_ جميل عبد المجيد : البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٨.

٢٧_ حمادة محمد عبد الفتاح الحسيني : المصاحبة اللغوية وأثرها في تحديد الدلالة في القرآن الكريم ، دراسة نظرية تطبيقية ، رسالة دكتوراه ، جامعة الأزهر ، كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين ، ٢٠٠٧ .

٢٨_ حياة معاش : الأشكال الشعرية في ديوان الششتري ، دراسة أسلوبية ، رسالة دكتوراه ، جامعة الحاج لخضر ، الجزائر ، كلية الآداب واللغات ، قسم اللغة العربية ، ٢٠١٠-٢٠١١ .

٢٩_ الخطيب القزويني : الإيضاح في علوم البلاغة ، شرح وتعليق وتنقيح محمد عبد المنعم خفاجي ، دار الجيل ، بيروت ، ط/٣ ، (د.ت) ، ج/٦.

٣٠_ الخليل بن أحمد الفراهيدي : كتاب العين ، تحقيق مهدي المخزومي ، إبراهيم السامرائي ، دار ومكتبة الهلال ، ج/٧ .

٣١_ الزمخشري : أساس البلاغة ، تحقيق محمد باسل عيون السود ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ، ط/١ ، ١٩٩٨ ، ج/.١

٣٢_ العلوي : دار الطراز ، تحقيق عبد الحميد هنداوي ، المكتبة العصرية ، صيدا– بيروت ، ط/١ ، ٢٠٠٢ ، ج/٢.

٣٣_ الفخر الرازي : نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز ، تحقيق نصر الله حاجي مفتي أوغلي ، دار صادر ، بيروت – لبنان ، ط/ا ، ٢٠٠٤ .

٣٤_ قدامة بن جعفر : نقد الشعر ، تحقيق كمال مصطفى ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ط/٣ ، ١٩٧٨ .

٣٥ _ كريم زكي حسام الدين : التحليل الدلالي ؛ إجراءاته ومناهجه ، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع ، ٢٠٠٠ ، القاهرة ، ج/١ .

٣٦_ لبيد بن ربيعة : شرح ديوان لبيد بن ربيعة ، تحقيق إحسان عباس ، وزارة الإرشاد والإعلام ، الكويت ، ١٩٦٢ .

٣٧_ المتنبي : شرح ديوان المتنبي ، وضعه عبد الرحمن البرقوقي ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ، ط/١ ، ٢٠٠١ ، ج/٤ .

٣٨_ محمد حلمي هليل : في طور التنفيذ معجم جديد للترجمة من العربية إلى الإنجليزية ، مجلة عالم الفكر ، مج/٢٨ ، ع٣ ، مارس ، ٢٠٠٠ .

٣٩_ محمد بن سلام الجمحي : طبقات فحول الشعراء ، قرأه وشرحه أبو فهر محمود محمد شاكر ، دار المدني بجدة ، ط/١ ، السفر الأول .

٤٠_ محمد العبد : إبداع الدلالة في الشعر الجاهلي ؛ مدخل لغوي أسلوبي ، دار المعارف ، القاهرة ، ط/١، ١٩٨٨.

٤١_ محمد عبد المطلب : البلاغة العربية ، قراءة أخرى ، الشركة المصرية العالمية للنشر ، لونجمان ، ط/١ ، ١٩٩٧ .

٤٢_ وليد إبراهيم قصاب : علم البديع ، دار الفكر – دمشق ، دار الفكر المعاصر– بيروت ، ط/١، ٢٠١٢ .

Abstract

The aim of this study is to explore the phenomenon of meteorology in the poetry of **Osama ibn Monqez**, and focus on its semantic and psychological effect, as an effective structure within the poetic text. This phenomenon prepares the recipient to interact with the meaning and enable it in himself, and achieve the textual consistency by making the meaning of pre-word to be evidence to the post word.

This phenomenon has remarkable spread in the poetry of **Ibn Monqez**, but the studies that dealt with his office, as I know, did not address them.

The study has analyzed the phenomenon and illustrated its different images in the poetry of **Osama ibn Monqez**, where the study was based on certain phenomena such as: the unity of the semantic field, the linguistic associations, and the opposing couples, Derivation, and citation and inclusion.

The study did not neglect to stand at the definition of **Osama ibn Monqez** himself to the phenomenon of meteorology in his book **ElBadi** in criticism of poetry.